أمية بن أبي الصلت

تأليف : الدكتور بهجة الحديثي
عرض : الدكتور أحمد الربيعي

لقد كان لأمية بن ابي الصلت شأن عجيب غريب بين شعراء قومه وعصره • فقد اشتهر بانه كان رحالة يجوب الاقطار بتجارته وينتجع العلية بشعره ، فمن مسقط رأسه الطائف ، الى البحرين واليمن حيث ممدوحه ونديمه سيف بن ذي يزن الحميري • ومن الشام الى يثرب ومكة ، حيث ممدوحه ونديمه عبدالله بن جدعان ، واخواله عبد شمس •

على ان اشهر ما اشتهر به امية هو انه كان علامة باخبار الماضين ، وخاصة بقصص الانبياء الذين طمح شاعرنا الى ان يكون هو خاتمهم منذ وجد البشارة به في التوراة والانجيل اللذين كان يقرؤهما بلغتيهما ، كما رأى الاحناف يتطلعون الى نبيهم المنتظر الذي أظلهم زمانه • والاحناف فئة من العرب كانت على حنيفية ابراهيم الخليل وهي من الحنف ـ بفتح الحاء والنون معا ـ بمعنى الميل عما كان عليه اليهود والنصارى والمشركون بدليل قوله تعالى : ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين •

الا ان أمية رغم ثقافته وكهانته ومعرفته بلغة الحيوان وتسخيره الجن ـ على ماتزعم اخباره ـ لم يدع النبوة ، ولم يؤلب قومه وبلدته لنصرته على نحو مافعل مسيلمة الذي ادعى النبوة في قومه بني حنيفة ، وهم من ربيعة اليمامة الغربية من الرياض عاصمة نجد ، وتحالف مع سجاح التي ادعت النبوة في قومها تميم واخوالها تغلب ، وهم من ربيعة الجزيرة التي بين دجلة والفرات شمال الانبار فسارت بهم اليه وهي تنوي قتاله والقضاء عليه ،

ثم القضاء على دين محمد صلى الله عليه وآله . فتزوجها مسيلمة وضم قومها الى قومه وكما فعل طليحة الذي ادعى النبوة في قومه بني اسد ، وقد التف حوله ناس من اهل الجزيرة العربية لم تحملهم الارض كثرة ، وكما فعل عبهلة وهو الاسود العنسي الذي استقل باليمن وسيطر عليها بأسرها ، واوشك ان يستولي على مكة نفسها ، وكان مسيلمة يلقب نفسه بنبي حنيفة ، وبرحمان اليمامة ، وكان يراسل رسول الله بقوله .. من مسيلمة رسول الله ، الى محمد رسول الله ، اما بعد : فلك نصف الارض ولي نصفها ، ولكن قريشا قوم فيهم طمع . وكان قد تنبأ آخر ايام رسول الله . اما طليحة وعبهلة فقد تنبآ بعيد وفاته صلى الله عليه وآله .

هذا رغم ان امية عاصر عشرين سنة من نبوة رسول الله . ورغم ان قومه في الطائف ، واخواله في مكة ، كانوا آخر العرب اسلاما فقد حاصر رسول الله الطائف حوالي نصف شهر اضطر بعده الى ان يرجع عنهم لمناعة حصنهم ، فلم يدخلوا في الاسلام الا بعد فتحه مكة في السنة الثامنة او التاسعة للهجرة ، وبعد انتصاره الكبير على هوازن واحلافها في حنين التي تقع بين مكة والطائف ، وكان اسلامهم في السنة العاشرة للهجرة ، ثم انهم هموا بالارتداد عقب وفاته صلى الله عليه وآله . الا ما يروى من ان أمية كان يبشر بنبوته بين نساء ثقيف ، فقد قيل له : لماذا لاتؤمن بمحمد ؟ فقال : وكيف اومن به وقد كنت احدث نسيات ثقيف باني انا الذي سأكون النبي ! وهكذا مات علامة الطائف حسدا وكمدا من « غلام مكة » على حد تعبيره هو .

وكان أمية قد بكى قتلى المشركين الذين حاربوا رسول الله في معركة بدر القريبة من المدينة ، والتي كانت في السنة الثانية للهجرة ، وكان في هؤلاء القتلى ابنا خاله عتبة بن ربيعة واخوه شيبة ، وعتبة هذا ابو هند ام معاوية بن ابي سفيان ، وحرضهم على التعبئة ، وقد هجا في حائيته هذه رسول الله ببيتين تأثم المؤرخون من روايتهما ، وتتواتر الاحاديث على ان

امية لم يعترف بنبوة رسول الله ، فقد قيل ان رسول الله سأل عنه اخته الفارعة ، فانشدته عدة من قصائد من شعره ، فلما سمعها صلى الله عليه وآله قال : ان كاد امية ليسلم . ويروى انه قال : كاد امية يسلم في شعره ، ويروى انه قال : آمن شعره وكفر قلبه . وقد ترجع جذور موقفه هذا من نبوة رسول الله . الى زعم انه كان في اول امره نبيا . فقد ذهب المفسرون الى انه قد يكون هو المقصود بقوله تعالى : اتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . وقد قيل ان رسول الله قال للفارعة اخت امية لما جاءته وقصّت له قصته وانشدته من شعره : يا فارعة ، ان مثل اخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها . وقد يؤيد عدم اسلامه ان اهل الطائف كانوا اهل خمر وزنا . وقد فاوض وفدهم رسول الله قبل اسلامهم في ان يسمح لهم بهما وعندما وقف امية على قتلى بدْر ، وفيهم اخواله ، وجلّة قريش ، شق اثوابه وقال : اليوم حلت لي الخمر ، وانكفأ الى اليمن ، وظل يشرب فيها الخمر حتى مات . وقيل انه مات في الطائف وهو يشرب مع رفاقه وقيل انه مات فيها اثناء حصار رسول الله لها في السنة الثامنة او التاسعة للهجرة .

اما الرواية التي تزعم ان امية اسلم ، وانه مدح رسول الله بقصيدته الميمية التي في ديوانه ، فان الدكتور جواد علي يرى انها من صنع الثقفيين الذين ارادوا ايام الحجاج ان يثبتوا انهم من اهل السابقة في الاسلام .

وقد اختلف المحققون في نحلة أمية ، هل كان يهوديا ، ام نصرانيا ، ام حنيفا . فذهب زيدان ــ ١٩١٤ الى انه كان يهوديا لانه دارس اليهود ، وطالع كتبهم ، وروى في شعره روايات تنطبق على مافي كتبهم ولاتنطبق على

ما في كتب النصارى • ان مدارسة امية لليهود ، ومطالعته كتبهم ، وروايته عنهم لاتعني أنه صار يهوديا • كما ذهب شيخو – ١٩٢٧ وكميد الى انه كان نصرانيا وتشبثا بستة ادلة (١) كونه من اياد التي تفشت فيها النصرانية (٢) تعلمه القراءة والكتابة بالعربية والسريانية من النصارى (٣) اطلاعه على الانجيل والاسفار (٤) دخوله الكنائس واتصاله بالرهبان (٥) في شعره اقتباسات من كتبهم (٦) كونه على الحنيفية وهي شعبة من النصرانية •

ان تفشي النصرانية في بعض اياد او في كثير منها ، او في اكثرها لا يعني تنصر اياد قاطبة ، وفي ديارها المتباعدة جميعا • فقد كانت اياد في الطائف والبحرين واليمن والحجاز والعراق والشام • علما ان اهل النسب مختلفون في نسب ثقيف • هل هي من اياد كما صرح امية في قطعة ميمية وفي قصيدة نونية ، ويقول مترجموه انه كان عالما بالانساب بحيث كان الناس يرجعون الى شعره لمعرفة انسابهم الا ان هذا قد يكون زعما من مزاعم الثقفيين انفسهم ، والافي ديوانه بيت يتبرأ فيه من اياد وهو البيت الذي هجا فيه بعض نكرات الناس :

ضل بن ضلّ وانّي من ايادكم بَراء

وبعضهم يرجع ثقيف الى هوازن ، وهي من مضر أخي اياد ، وبعضهم الى ثمود التي قال فيها تعالى وفي عاد وقوم نوح : وانه أهلك عادا الاولى وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم واطغى •

واما تعلمه القراءة والكتابة بالعربية والسريانية من النصارى ، واطلاعه على كتبهم ، ودخوله كنائسهم ، واتصاله برهبانهم ، واقتباسه منهم فكلها لاتقطع بتنصره • اذ ليس في شعره ما يدل على ايمانه بالتثليث والصلب وهما شعار النصارى ، بل انه نعت المسيح عليه السلام بالعبد :

وفي دينكم من رب مريم آية منبئة بالعبد عيسى بن مريم

وتحدث عن تأليه النصاري للمسيح عليه السلام بلهجة لاتدل على مشاركته لهم في مذهبهم كما نعته بالرسول :

ايام يلقى نصاراهم مسيحهم   والكائنين له ودا وقربانا
هم ساعدوه كما قالوا الههم   وأرسلوه يسوف الغيب دسفانا

الكانتون : الطائعون • الدسفان : الرسول • وقد سمى القدماء من دخل النصرانية من الاحناف ، فلم يذكروا معهم امية • اما كون الحنيفية شعبة من النصرانية، فهذا ما لم يقله احد لامن القدامى ولا من المعاصرين، ولا قدم شيخو وكميد ادلتهما عليه • وقد كان الاحناف يعبدون الله الواحد الاحد الذي لم يتخذ صاحبه ولا ولدا ولا يشركون به احدا • ويعتزلون الاصنام والاوثان ويحرمون الخمرة ويختتنون ، ويحجون الى الكعبة • وشعر امية يدل على انه كان على هذه الحنيفية كقوله :

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة بور

وتساءل الدارسون عن منابع الموضوعات الدينية التي كادت تجعل من ديوانه نظما لكتاب من الكتب السماوية حتى قال فيه سراقة البارقي -٧٩هـ في قصيدته التي اتى فيها على ذكر الشعراء وما اختص به كل واحد منهم •

وأمية البحر الذي في شعره   حكم كوحي في الزبور مفصل

وهذه الظاهرة اميز ما يميز ديوان امية عن غيره من دواوين شعراء الجاهلية والاسلام ، فهو لم يترك شيئا مما عند اهل الكتابين والاحناف ، الا نظمه في شعره ، كخلق السماوات والارض ، والنجوم ، والشمس والقمر ، وخلق الانسان من صلصال ومن نطفة ، وآدم وحواء وابليس والحية والشجرة المحرمة ، والفناء والنشور ، والحساب والعقاب • والجنة والنار ، والحور والملائكة والشياطين ، ونوح والطوفان وسفينته وابنه والغراب والحمامة والغصن • وعاد وثمود وناقتهم • وابراهيم وابنه والكبش ، وبقرة بني اسرائيل ، وهارون وموسى وفرعون وانفلاق البحر ولقمان ويونس ولوط ، واهل الكهف وكلبهم ، ومريم العذراء وبشارتها بعيسى • وابرهة وفيله ودليله ابي رغال الثقفي ، ورب العزة وعرشه الذي يحمله رجل وثور واسد ونسر •

وقد نظم امية قصائده في البحور التي اكثر النظم فيها شعراء الخضرمة كالطويل والبسيط والوافر والمنسرح والرمل والمتقارب ، مع بعض الرجز ، ولعله نظم في البحور الاخرى ، الا انه لم يصل الينا اكثر من ثلث شعره ، وهو ما يربو على مئة قصيدة • لابل قل اكثر من نصفه كما تنبئنا هـــذه المقطوعات والابيات والاشطار اليتيمة التي في ديوانه على انه اكثر من النظم في الخفيف خاصة وقد يكون متأثرا في هذا بشعراء ربيعة كالمهلهل التغلبي ، والحارث بن عباد والاعشى البكريين ، وبشعراء الحيرة كعدي بـن زيد العبادي التميمي •

وترك تصريـع مطالـع قصائده ، فليس في ديوانـه غـير قصيدتـين مصرعتين ، وهما لزوميته القافية التي نظمها قبيل وفاته ، والنونية التي نشك في نسبتها اليه ، كما لم يستهل امية قصائده بالمقدمات الطللية والغزلية والخمرية والفروسية وغيرها ، وانما كان يبدأ القصيدة بموضوعها كفاحا • او يبدؤها بالتحميد فليس في ديوانه سوى النونية وهي التي شككنا فيها لشذوذها في بابها ، فكأن ناظمها اقتطعها اقتطاعا من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي ثم اضاف اليها ابياتا على وزنها وقافيتها يفخـر فيها بانتسابـه الى قسي بـن النبيت الذي ارجعه الى أفصى بن دعمي بن اياد بن نزار بن معد بن عدنان • وفي هذا لقب" لقّب به ثقيف لقساوته ، ثم جعل لهذه القصيدة مقدمة غزلية ليقال انها قصيدة جديدة مستقلة ، بينما تدل مقدمتها الغزلية التي لا علاقة لهـا بموضوعها ، على ان ناظمها جاهل بوظيفة المقدمة الغزلية التي كان الشعراء يرصدون بها موضوع القصيدة ، ويرمزون بها اليه ، وأين هذا من اخباره التي تقول انه كان من العلماء بالشعر •

ان هذا الكتاب اوسع ما ألف في امية بن ابي الصلت الثقفي ، فقد رجع الدكتور الحديثي الى نحو ثلاثمئة مصدر ، بينها سبع مخطوطات اضافة الى خمسة أبحاث لخمسة مستشرقين ويعود بعض مصادره الى القرن الاول الهجري ، وكثير منها الى القرن الهجري الثاني • وقد تكافأ جهده فـــي

تقصي اخبار الشاعر ، وفي جمع ديوانه المفقود الذي كـان يـزيد علـى ثلاثمئة قصيدة • استطاع ان يجد منها ما يقرب المئتي قصيدة ومقطوعة وبيت وشطر صرحت المظان بانه من قصيدة طويلة اتفق رواتها على صحة نسبة جمهورها اليه ويشهد جمعها وجمع اخبار شاعرها وتحقيقها ودراستهـا ، باكتمال اداته ، واخلاصه لتراثه الذي قدم لنا منه هذا الشاعر الذي يقف مع شعراء الاحناف كقس بن ساعدة الايادي ، وزيد بن عمرو بن نفيل القرشي دليلا على ان العرب كانوا على « التوحيد » منذ عهد ابراهيم الخليل الذي رفع بينهم قواعد البيت العتيق • انه نموذج للدراسات العلمية الواعية الموجهة الهادفة الى توثيق عرى التراث بالمعاصرة •